نشيد رسالة أفسس (١: ٣-١٤)

التدبير الثالوثي: من الاختيار إلى القداسة

الأب أنطوان عوكر

مُقدّمة: ملاحظات تمهيديّة

يَرد النشيد الذي هو مَوضوع مقالتنا بعد الآيَتَين الافتتاحيَّتَين في الرسالة إلى أهل أفسس. مَهما يَكن من أمر صحّة نسبة الرسالة مُباشرة إلى بولس، فإنّ كاتبها يستعمل في هاتَين الآيتَين المقدّمات المُعتادة التي يستعملها بولس في رسائله (الكاتب، المُرسَل إليهم، تحيّة) للتأكيد على أهمّيّة مضمون رسالته وسلطته. أمّا من جهة الجماعة المسيحيّة التي يتوجّه إليها فيَصفُها بجماعة "قدّيسين ومؤمنين". تُشكّل هاتان التسميتان ركيزة أساسيّة لفَهم مضمون النشيد. فالقدّيسون هُم الذين اختارهم الله الآب وأفرزهم بمشيئته، والمؤمنون هُم الذين سَمعُوا دعوة الآب وعَملوا بحسب اختياره لهم. أمّا التحيّة التي تحتوي على "النعمة والسلام" فتَجمع، كما سائر الرسائل، بَين البُعدَين اليونانيّ واليهوديّ للتحيّة. لا بُدّ من الإشارة أخيرًا إلى أنّ هاتَين الآيتَين تذكُران "المسيح يسوع" ثلاث مرّات: مرّة لتحديد الكاتب، ومرّة لتحديد المُرسَل إليهم، ومرّة لتحديد مصدر التحيّة. سوف يوسّع الكاتب هذه المكانة الجوهريّة للربّ يسوع المسيح في "مباركته" الآتية.

مُنذ مطلعه، يَظهَر نَشيد رسالة أفسس (١: ٣-١٤) كمُبَاركات مُتبادلة: "مُبارَكٌ الله... الذي باركنا...". يُبارَكُ الله لأنّه أغدق على المؤمن عطايا. يَكثر هذا النوع من الأناشيد في العهد القديم: "مُبارَكٌ الله العليّ الذي أسلم أعداءَك في يَدك" (تك ١٤: ٢٠)؛ "مُبارَكٌ الربُّ الذي أنقذكم من أيدي المصريّين ومن يد فرعون" (خر ١٨: ١٠)... وفي رسالة أفسس يُبارك اللهُ لأجل بركاته "الروحيّة" التي حقّقها بواسطة ابنه يسوع المسيح.

من جهة أخرى، تُجاه الهبات والعطايا لا يتكلّم الكتّاب المُلهَمون على شُكر بَل على "مباركة"، على تسبيح: فالرجل الفقير الذي يُفَكُّ رهنُه يُبارِكُ الذي أقرضه (تث ٢٤: ١٣)؛ نزولاً عند رغبة يوآبَ أطلق داود سراح أبشالوم، فما كان من يوآبَ إلاّ أن بارَكَ الملك (٢ صم ١٤: ٢٢)؛ هذا ما نراه أيضًا في مُعظم مزامير "التسبيح"... لقد دخَلَ كاتب الرسالة إلى أهل أفسس في هذا التقليد فجاء نشيده صرخة تسبيح ومباركة لِما اختبره من المواهب.

في هذا السياق نُشير أخيرًا إلى اختلاف جوهريّ بين "مباركات" العهد القديم ومُباركة رسالة أفسس. فَفي العهد القديم تُستَعمل العبارة "مُبارك الله إلهُ أحدهم..." لسَرد ما عمله الله مَعه. نرى مَثلاً "مبارَكٌ الربّ إله سيّدي إبراهيم الذي لم يمنع لُطفَهُ وحقَّه عن سيِّدي" (تك ٢٤: ٢٧)؛ أو "قال أخيمعصُ للمَلك: مُبارك الربُّ إلهُك الذي دفع القوم الذينَ رفعُوا أيديهم على سيِّدي الملك" (٢ صم ١٨: ٢٨)... أما كاتب الرسالة إلى أفسس فيبدأ نشيده بمُباركة الله أبي ربِّنا يسوع المسيح ليُعدِّدَ ما صنعه الآبُ لأجلنا "نحنُ" في المسيح يسوع. من هُنا يُطرح السؤال: كيف سرد الكاتب مراحل تدبير الآب الخلاصيّ؛ وما هي هذه المراحل؟ للإجابة على هذا السؤال سوف نعرض أوّلاً ترجمة بين السطور للنشيد تُساعدنا على تمييز النقاط المفصليّة في النصّ؛ بعد ذلك نُورد بعض المُعطيات الأدبيّة التي تخوّلنا اقتراح بُنية أدبيّة للنشيد. من ثمّ نُجيب على السؤال المطروح.

الرسالة إلى أهل أفسس ١ ΠΡΟΣ ΕΦΕΣΙΟΥΣ 1

[3]Εὐλογητὸς ὁ θεὸς καὶ πατὴρ τοῦ
أَبو و الله مُبارِكٌ
κυρίου ἡμῶν Ἰησοῦ Χριστοῦ, ὁ εὐλογήσας ἡμᾶς ἐν πάσῃ
كلّ في انــ الذي بارَكَ المسيح يسوعَ انــ ربّ
εὐλογίᾳ πνευματικῇ ἐν τοῖς ἐπουρανίοις ἐν Χριστῷ, [4]καθὼς
كما المسيح في السماويّات في روحيّة بَرَكة
ἐξελέξατο ἡμᾶς ἐν αὐτῷ πρὸ καταβολῆς κόσμου εἶναι ἡμᾶς
نحنُ لِنكونَ العالَمِ إنشاءِ قبلَ ــهِ في انــ اختارَ
ἁγίους καὶ ἀμώμους κατενώπιον αὐτοῦ ἐν ἀγάπῃ, [5]προορίσας
مُحَدَّدًا سابِقًا مَحَبَّةٍ في ــهُ قُدّامَ بلا لَومٍ و قَديسينَ
ἡμᾶς εἰς υἱοθεσίαν διὰ Ἰησοῦ Χριστοῦ εἰς αὐτόν, κατὰ τὴν
حَسَبَ ــهُ لَــ المسيح يسوعَ بِــ تَبَنٍّ لِــ إيّانا
εὐδοκίαν τοῦ θελήματος αὐτοῦ, [6]εἰς ἔπαινον δόξης τῆς
مَجدِ مَدحِ لِــ ــهِ مَشيئةِ رِضى
χάριτος αὐτοῦ ἧς ἐχαρίτωσεν ἡμᾶς ἐν τῷ ἠγαπημένῳ. [7]ἐν ᾧ
الذي فيهِ الحَبيبِ في علينا أنعَمَ التي ــهِ نعمةِ
ἔχομεν τὴν ἀπολύτρωσιν διὰ τοῦ αἵματος αὐτοῦ, τὴν ἄφεσιν
غفرانُ ــهِ دَمِ بِــ الفِداءُ لَنا
τῶν παραπτωμάτων, κατὰ τὸ πλοῦτος τῆς χάριτος αὐτοῦ [8]ἧς
التي ــهِ نعمةِ غِنى حَسَبَ الزلّاتِ
ἐπερίσσευσεν εἰς ἡμᾶς, ἐν πάσῃ σοφίᾳ καὶ φρονήσει,
فَهمٍ و حكمةٍ كلّ في انــ على أفاضَ
[9]γνωρίσας ἡμῖν τὸ μυστήριον τοῦ θελήματος αὐτοῦ, κατὰ
حَسَبَ ــهِ مَشيئةِ سِرَّ لَنا كاشِفًا
τὴν εὐδοκίαν αὐτοῦ ἣν προέθετο ἐν αὐτῷ [10]εἰς οἰκονομίαν
تَدبيرِ لِــ ــهِ في قَصَدَ الذي ــهُ رِضى
τοῦ πληρώματος τῶν καιρῶν, ἀνακεφαλαιώσασθαι τὰ πάντα
كلّ شيءٍ لِيَجمَعَ تحتَ رأسٍ واحدٍ الأزمنةِ ملءِ
ἐν τῷ Χριστῷ, τὰ ἐπὶ τοῖς οὐρανοῖς καὶ τὰ ἐπὶ τῆς γῆς ἐν
في الأرضِ على ما و السماواتِ في ما المسيحِ في
αὐτῷ. [11]ἐν ᾧ καὶ ἐκληρώθημεν προορισθέντες κατὰ πρόθεσιν
قَصدِ حَسَبَ مُحَدَّدينَ سابِقًا أُختِرنا أيضًا الذي فيهِ ــهِ
τοῦ τὰ πάντα ἐνεργοῦντος κατὰ τὴν βουλὴν τοῦ θελήματος
مَشيئةِ رَغبةِ حَسَبَ الذي يَعمَلُ كلّ شيءٍ
αὐτοῦ [12]εἰς τὸ εἶναι ἡμᾶς εἰς ἔπαινον δόξης αὐτοῦ τοὺς
ــهِ مَجدِ مَدحِ لِــ نحنُ أن نكونَ لأجلِ ــهِ
προηλπικότας ἐν τῷ Χριστῷ. [13]ἐν ᾧ καὶ ὑμεῖς ἀκούσαντες
لَمّا سَمِعتُم أنتُم أيضًا الذي فيهِ المسيحِ في الذينَ تَرَجَّينا سابِقًا
τὸν λόγον τῆς ἀληθείας, τὸ εὐαγγέλιον τῆς σωτηρίας ὑμῶν,
مِــ خَلاصِ إنجيلَ الحقِّ كلمةَ
ἐν ᾧ καὶ πιστεύσαντες ἐσφραγίσθητε τῷ πνεύματι τῆς
بِروحِ خُتِمتُم لَمّا آمَنتُم أيضًا الذي فيهِ
ἐπαγγελίας τῷ ἁγίῳ, [14]ὅ ἐστιν ἀρραβὼν τῆς κληρονομίας
ميراثُ عُربونُ هو الذي القدّوسِ المَوعِدِ
ἡμῶν, εἰς ἀπολύτρωσιν τῆς περιποιήσεως, εἰς ἔπαινον τῆς
مَدحِ لِــ المُقتَنى فِداءِ لِــ انــ
δόξης αὐτοῦ.
ــهِ مَجدِ

١ – مُلاحظات بُنيويّة لنشيد رسالة أفسُس

يظهر بشكل واضح، من خلال اللغة اليونانيّة الأصليّة للنصّ، أنّ النشيد مؤلَّف من جملة واحدة فقط. تترابط عناصر هذه الجملة بأدوات وبحروف جرّ وبأسماء فاعل وغيرها. نسعى في هذا القسم إلى اكتشاف أهمّ هذه النقاط المفصليّة وأبرز المُعطيات الأدبيّة التي بنى الكاتب على أساسها نشيده.

تتكرَّر ثلاث مرّات في النص عبارة: "لِمَدح مَجد" (آ ٦ و١٢و١٤). اعتبر بعض الشارحين هذه العبارة "لازمة" يُكرِّرها النشيد وبالتالي تقسمه إلى ثلاثة أقسام؛ في حين أن البعض الآخر لم يستعملها لقسمة النشيد. سنعتمد هذه العبارة لقسمة النشيد لأنها تجعلنا نُميّز بين قسم أوّل (آ ٣-٦) حيث يظهر عمل الآب بأفعال للغائب (هو)؛ وقسم ثان (آ ٧-١٢) تَغلب فيه أفعال في صيغة المُتكلّم الجمع (نحن)؛ وقسم ثالث (آ ١٣-١٤) وُضع في صيغة المُخاطب الجمع (أنتُم). والسبب الثاني الذي يؤكّد على هذه القسمة هو أنّ القسم الأوّل يُركّز على عمل الآب "قَبل إنشاء العالم"، والقسم الثاني على عمل الابن حين 'افتدانا بدمه"، والقسم الثالث على عمل الروح الذي به خُتم المؤمنون والذي يُتمِّم العملَين الأوّلَين.

من جهة أخرى، النشيد مليء بعبارات تدلّ على وساطة المسيح (في المسيح، فيه). هُناك عبارة مُترادفة ولكن تأخذ شكلاً آخر تُرجمت بين السطور بـ"الذي فيه" نجدها في الآيات ٧ و١١ و١٣ (تَرد على التوالي بعد: "في الحبيب"، "فيه"، "في

المسيح"؛ مع إضافة "أيضًا" في المرّتَين الأخيرتَين). ونجد أيضًا اسمَي فاعل في صيغة الغائب (هو) يُساعدان على ربط عناصر جملة النشيد الوحيدة وهما: "مُحدِّدًا سابقًا" (آ ٥) و"كاشفًا" (آ ٩). يُلاحَظ أخيرًا أنّ الأداة التي تُرجمَت بـ"كما" في الآية ٤، والتي لا ترد إلاّ مرّة واحدة في النشيد، تأخذ بُعدًا تَفصيليًّا لما أورده الكاتب في الآية ٣ التي تظهر كمُقدّمة للنشيد كُلِّه.

على أساس كُلّ ما تقدّم يُمكننا أن نَقترح بنية أدبيّة للنشيد، مَع العلم أنّ هذا النشيد حظي بِبُنى مُتعدِّدة ومُختلفة.

٢- البُنية المُقترحة

مُقدّمة النشيد: البركات الروحيّة (آ ٣)

القسم الأوّل: مُتجذّرة قبل إنشاء العالم (آ ٤-٦)
الاختيار المُسبَق (آ ٤)
التحديد المُسبَق للتبنّي (آ ٥-٦)

القسم الثاني: تَحقّقَت بالابن أثناء تجسُّده (آ ٧-١٢)
الفداء – غفران الزلاّت (آ ٧-٨)
كشف سرّ المشيئة الإلهيّة (آ ٩-١٠)
نوال النصيب المُحدَّد سابقًا (آ ١١-١٢)

القسم الثالث: تستمرّ بالروح القدس بَعد القيامة (آ ١٣-١٤)
عربون الميراث (آ ١٣-١٤)

٣- أفكار النشيد الأساسيّة

سنعرض أفكار النشيد الأساسيّة مُظهرين كيفيّة ترابط هذه الأفكار بحسب البُنية المُقترحة للنشيد.

لقد استعمَل كاتب الرسالة أسلوبًا معروفًا في العالم اليهوديّ وهو أسلوب المباركة. تناوَل موضوعَه في جملة واحدة؛ بدأها بإعلان مباركة الله الآب مِن أجل بركاته التي أنعم بها على المؤمنين. من ثمّ راح يُعدِّد هذه البركات: جذَّرها قبل كلّ الدهور في مشيئة الآب، وأعلن تحقيقها بتجسُّد الابن واستمراريّة مفاعيلها بواسطة الروح.

ركّزت مُقدّمة المباركة (آ ٣) على الأبعاد الثالوثيّة للبركات: الآبُ باركَنا بكلِّ بركة روحيّة في المسيح. كما وأنّها شدَّدَت على البُعد الكريستولوجيّ لتحقيق هذه البركة من خلال إيراد اسم "يسوع المسيح" مرّتَين، وعلى البُعد "السماويّ" مُستعملة الصفّة الحياديّة في الجمع (السماويّات) بدل الاسم (السماوات) للدلالة على المواجهة والانتصار لأنّ هذا المكان السماويّ يضمّ الربّ والأرواح الشرّيرة (أف ٦: ١٢) والمؤمنين (٢: ٦)؛ لكنّ الربّ سينتصر فيه على كُلِّ رئاسة وسلطان (١: ٢٠-٢٣). أمّا إعلان تحقيق البُعد الروحيّ للبركات فسيظهر في خاتمة النشيد (آ ١٣-١٤) حيث يكشف أنّ المؤمنين خُتِموا بالروح ضمانة كُلِّ بركة "روحيّة".

يتوسّع الكاتب، بَعد طَرح موضوعه في المُقدّمة، في تعداد البركات الروحيّة. يربطها مُباشرة باختيار الآب قَبل تأسيس العالم ليجعلها تتخطّى كلّ مشيئة بشر وكلّ متغيّرات زمنيّة. أمّا هدف هذا الاختيار فهو تكوين شعب يتميّز بالقداسة والمحبّة. هذان الأساس والهدف يختصران جوهر "العهد"، عهد الله مع شعبه.

يُعلنُ الكاتب تحقيق هدف الاختيار حين يُبارِكُ الآبَ مِن جهة لأنّه، باختياره شعبه، حَدَّد أن يكون هذا الشعب في علاقة حميمة به، علاقة أولاد بأبيهم؛ ومِن جهة أخرى لأنّه "في الحبيب" أغدق عليهم نِعمته. بالتالي يُصبح الشعب أولاد الله مُقدَّسين ومُمَجِّدين إيّاه على نعمة التبنّي. يُلاحظ استعمال اسم المفعول "الحبيب" أو "المحبوب" فَقَط للإشارة إلى الابن يسوع المسيح؛ إنّها إشارة كافية لمَن يعرف روايات معموديّة يسوع والتجلّي: "هذا هو ابني الحبيب". ففي هذا الابن الحبيب نال المؤمنون التبنّي وأصبحوا "أولادًا أحبّاء" (أف ٥: ١).

مِن خلال فَيض النعمة يختبر المؤمنون بالمسيح الفداء والغفران، ويحصلون على الحكمة والفهم اللذَين يحتاجون إليهما. في الواقع هناك ذكر مزدوج للفداء في النشيد (آ ٧ و١٤) يُعطيه مَعنَيَين مُختلفَين ولكن مُتكاملَين. فالفداء الأوّل هو فداء "سلبيّ" يتجلّى في غفران الزلاّت، وهذا الفداء تحقّق في الزمن من خلال إهراق دم يسوع المسيح. أمّا الفداء الثاني فهو فداء "إيجابيّ" بدأ مع الفداء الأوّل ولكنّه يتخطّى الزمن ليتحقّق في دخول المؤمنين في الميراث الأبديّ. مُنتظرًا هذا البُعد النهيويّ للفداء، يُبارِكُ الكاتبُ اللهَ على كشفه سرَّ تدبيره في ملء الأزمنة. فَالآبُ كشف للمؤمنين أنّ ترتيبَه للتاريخ يتوجّه نحو المسيح ويقود كُلَّ شيء في الكون إلى حالة التناغم في المسيح. أمّا المؤمنون،

ولأنّهُم ترجّوا سابقًا، فَتربطهُم المُباركةُ بالمسيح "الكونيّ" وبقصد الله القدير حتّى يكونوا قادرين على تأدية المدح الواجب.

أخيرًا، تُدخِل المُباركة المؤمنين عمليًّا في صُلبِ موضوع المباركة إذ تُذكِّرهم أنّهم قَبلوا الإنجيل وختم الروح، فَهُم بالتالي نالُوا عربون الفداء الأخير الذي فيه سيقتني الله بالملءِ شَعبه ويُحقِّق فيه كُلّ مشيئته.

خاتمة

مِن الاختيار إلى القداسة مرورًا بالتحديد المُسبَق للتبنّي والفداء والوحي واقتناء الميراث: إنّها مسيرة المؤمنين بحسب تدبير الثالوث كما يظهر في نشيد رسالة أفسُس. ولكن يُمكننا أن نجمع أفكار النشيد الأساسيّة تحتَ عناوين أخرى مُركّزين على الأبعاد اللاهوتيّة (الله الآب)، والكريستولوجيّة (المسيح يسوع)، والبنوماتولوجيّة (الروحيّة) والإكليزيولوجيّة (الكنسيّة)، والكوسمولوجيّة (الكونيّة)، والكرونولوجيّة (الزمنيّة)، والإسكاتولوجيّة (النهيويّة). كُلّ هذه أبعاد تَدلّ على غنى النشيد اللاهوتيّ. فَكلّ شيء، ما في السماء وعلى الأرض وفي الكون كلّه، يؤول، من خلال تجلّي قداسة أبناء الله، لمدح مَجد الثالوث على كشف سرّ تدبيره. لا بُدّ من الإشارة أخيرًا

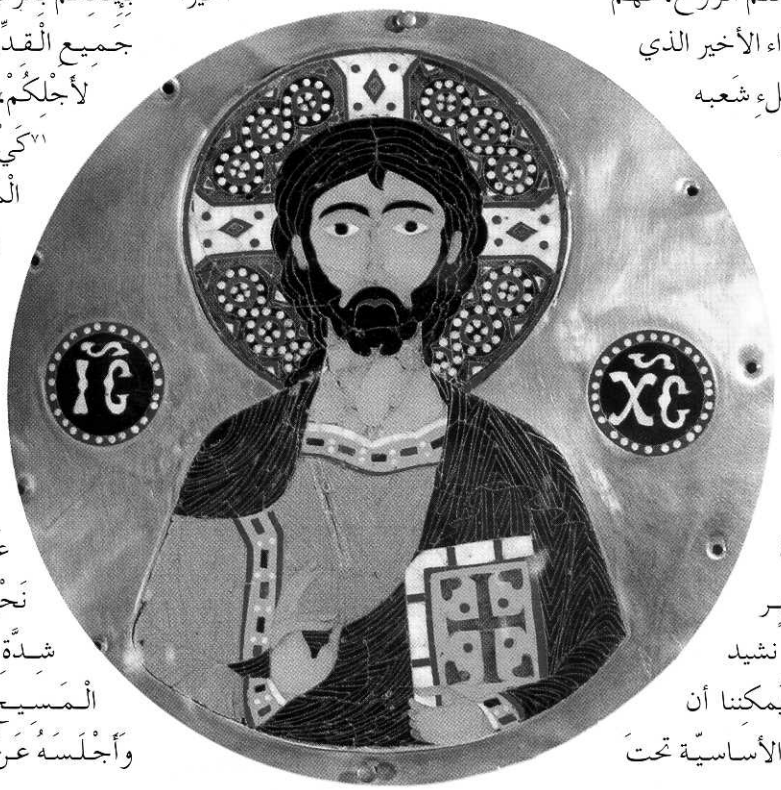

المسيح الرب الذي منه كل نعمة وبركة.
لوحة فنية بيزنطية من القرن العاشر، محفوظة في متحف غالديانو في مدريد

إلى أنّ هذا النشيد ليس منفصلاً عن سياق الرسالة العامّ. فبَعد أن ضغط الكاتب لاهوته في هذا النشيد، وبعد أن دعا الذين يتوجّه إليهم ليَعوا البركات التي حصلوا عليها، سوف يوسِّع، في صُلبِ الرسالة، كُلَّ أبعاد هذا النشيد. ولعلّ أبرز ما يؤكّد على هذا الترابط هو قراءة الآيات الأخيرة من الفصل الأوّل التي تلي نشيدنا مُباشرة.

[١٥]لِذَلِكَ أَنَا أَيْضاً إِذْ قَدْ سَمِعْتُ بِإِيمَانِكُمْ بِالرَّبِّ يَسُوعَ، وَمَحَبَّتِكُمْ نَحْوَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، [١٦]لاَ أَزَالُ شَاكِراً لأَجْلِكُمْ، ذَاكِراً إِيَّاكُمْ فِي صَلَوَاتِي، [١٧]كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلَهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ فِي مَعْرِفَتِهِ، [١٨]مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ، [١٩]وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ، حَسَبَ عَمَلِ شِدَّةِ قُوَّتِهِ [٢٠]الَّذِي عَمِلَهُ فِي الْمَسِيحِ، إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ، [٢١]فَوْقَ كُلِّ رِيَاسَةٍ وَسُلْطَانٍ وَقُوَّةٍ وَسِيَادَةٍ، وَكُلِّ اسْمٍ يُسَمَّى لَيْسَ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَقَطْ بَلْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضاً، [٢٢]وَأَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ، وَإِيَّاهُ جَعَلَ رَأْساً فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لِلْكَنِيسَةِ، [٢٣]الَّتِي هِيَ جَسَدُهُ، مِلْءُ الَّذِي يَمْلأُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ.